

نِقْطَةُ الْقِيَمَةِ

لنورسرف

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

وأشترى لك من أربابى بعض الهدايا التى
تلا المرس « وهنا ودع أسره وأسرع
إلى غايته

وفى منتصف الطريق هبط إيفان فنده
يطلب الراحة والجلم . وهناك لقي صديقا
من التجار جلسا معا يتناولان الشاي
وبسمران حبنا ، ثم انطلقا — بعد حين —
كل إلى فرائسه فى حجرتين متجاورتين
بينهما باب

وعند الفجر هب إيفان ليستأنف راحته ،
فهر قد تعود أن ينام مبكرا وأن يسبحو
مبكرا . وبعد أن طوى خمسة وعشرين ميلا
هبط فندقا آخر لينفذى رواجه وأحمت
الحيول تلهم العلف على حين اتجى إيفان
ناحية من الطنف بعرف على قنارته

وأخذه النشوة فآفاق إلا على صوت
عربة تقب على حين نجاة لدى باب الفندق .
وهبط من العربة ضابط وجندبان . والعطف
الضابط من فوده صوب إيفان بسأله : من
هو ، ومن أين آتى ، وإلى أين يذهب .
وكيف قصى الليلة الماضية . وهل قابل تاجرا

إيفان إكسينوف تاجر شاب من بحار
مدينة فالديير ، يعيش فى سعة من العيش ،
فهو يملك منزلا ودكا كين . لقد كان إيفان
شابا أنيقا يتقد نشاطا وبتوب مرحا ،
يهوى الفناء ويميل — هونا ما — إلى
الشراب ، فإذا أسرف فيه عربد . ولكنه
حين تزوج عزف عن الشراب إلا صباوات
تستهويه بين الفينة والفينة

وفى ذات صيف عقد إيفان العزم على
أن يرود معرض نيزنى يشتري ويبيع .
وحين أقبل يودع زوجته بأدرته بقولها :
« لا ترحل اليوم يا إيفان ، لأننى رأيتك
الليلة فى حلم مزعج »

فضحك إيفان وهو يقول : « لا عجب
إن أنت خشيت أن تزوبى زوايا الطرب
حين أغتمر فى نشوة المعرض »

فأجابت الزوجة : لست أدرى مم أخاف ؛
ولكننى رأيتك فى منامى تعود من المدينة
فتخلع قبعتك فإذا رأسك يشتمل شيئا
فضحك الزوج مرة أخرى وهو يقول :
« هذه علامة سعيده ، سأبيع بضاعتى كلها

تخونك . فحدثني كيف قتلت الرجل ؟ وكم من المال سرقته ؟ »

وراح إيفان يقسم أنه لم يفعل ، وأنه لم ير الرجل منذ ، ساء الأمس ، وأنه لا يحمل مالا سوى ثمانية آلاف روبل هي كل ماله هو ، وأن السكين ليست له . ولكن صوته كان مضطربا متكسرا ، وكانت صفرة الخوف تعلو وجهه ورعدة الاضطراب تسيطر على أعصابه كما لو كان هو المجرم الحقيقي

ودهبت الصيحات هباء . وأمر الضابط قتيلا الرجل وألقى في العربة ليودع السجن وجاء يوم المحاكمة فأدين المتهم بقتل التاجر وسرقة عشرين ألف روبل كانت معه ، فحك عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وجلد حتى دمي جلده ، وأرسل إلى سيبيريا ليقضى ما بقى من عمره في العذاب المهيمن

ودهبت الزوجة إلى زوجها السكين تحمل الأسى واليأس في صدرها وتحمل على كتفها أطفالا صغارا لم تفتح عين واحد منهم - بعد - على الحياة . ورأت زوجها يرسل في الأغلال الثقالة وقد تسربل لباس السجن ، تضمه قضبان السجن ليكون لصا بين لصوص ، وليكون مجرما بين مجرمين ... رآته على هذه الحال فاستولى عليها الغم فسقطت فاقدة الوعي فما أفاق إلا بعد

آخر ؟ وهل قضيا معا الليلة ؟ وهل رأى كل منهما الآخر صباح اليوم ؟ ثم لماذا غادر إيفان الفندق في غفلة من الناس ، عند طلوع الفجر ؟ ...

لقد كان إيفان يسمع هذا السيل من الأسئلة ويحب وهو في حيرة . فهو في سبيله إلى غاية شريفة لم يقترف ذنبا ولم يجترح إثما وسأل إيفان الضابط : فيم كل هذا ؟ فأجابه الضابط قائلا : « أنا ضابط بوليس الناحية . وأنا أستجوبك لأن التاجر الذي قضيت معه ليلتك الماضية ألقىناه في الصباح قتيلا . ولابد أن نقش متاعك . ثم يدفع الضابط والجنديان إلى متاع الرجل يفتشون ، فعمروا بين متاعه على سكين لوئت بالدم ، وصاح الضابط في وجه إيفان « لمن هذه ؟ » ونظر الرجل إلى السكين الملوثة بالدم وهي تجذب من بين متاعه فارتاع وحول أن يدفع عن نفسه ؛ ولكن الكلمات ماتت على شفاهه إلا كلمتين « لست أدري »

وقاطعه الضابط قائلا : « عند الصباح وجد التاجر قتيلا قد حزت رقبتة . وأنت الرجل الوحيد الذي يمكن أن يرتكب الجريمة . لقد كان الباب مغلقا من الداخل ولم يكن هناك غيركما . وهما هي ذى السكين الملوثة بالدم ، وبين متاعك ، وهما هي ذى أعصابك

ومضت ست وعشرون سنة في العذاب
النهيم... مضت السنوات الطوال فأحالت الرجل
الشاب إلى رجل آخر شاب سمرة واستقرت
لحيته وأخبر ظهيرة وران العيوس على وجهه.
يشي في بطنه وتساك عن الكلام فلا يتكلم
إلا «درا» لأنه فرج شفاه — أبداً — عن
القسامة؛ وهو بعد يقضي وقته كله يصلي
لله وحده.

وفي السجن لهم يقضي صلاة الاحدية،
فهى كمر غيبه قليلا من الريح يعينه على
قضاء حاجته. ومما ربح من صناعته
اشترى كتاب «حياة القديسين» وراح
يستظهر صفحت من كتابه وجد الضوء في
السجن المظلم. وكان يذهب أيام الآحاد إلى
كنيسة السجن يقرأ لرفاقه الدروس ويرى
الأشبه بصوت فيه النغم الموسيقي الأحدث
ومضت الأيام فإذا بإدارة السجن
تكشف عن خلال كريمة انصف بها إيفان.
فهى ترى فيه الدعة والمطرب والاستقامة
والدين. وإذا رفاقه يحسون باحترامه
ويشعرون قدرته فيلقبونه مرة «بالجد» ومرة
«بالقدس» ثم اتخذوه محاميا يدافع عنهم
بالحق ووجدوا فيهم بالعدل.

وامتدت عن إيفان أخبار أسرته —
زمانا — : عاد يسمع عنهم شيئا
ولى ذات صباح أقبلت منه من المذنبين

لأنى. وجدت روضة إلى زوجها. وقد
عصف بهد الحزن والسكند سائمه : «ماذا
عسى أن تفعل؟» قال : «يجب أن ألتبس
العفو من القيصير. فهو لن يدع بريثا يهلك
نجره عيرة» قالت الزوجة : «قد فعت
وسكن القمامى. بل القبول» فأطرق
الرجل في رأس واستمرت الزوجة تقول :
«لعلك تذكر حديثي ساعة الوداع» لقد
حدثت من السفر في ذلك اليوم... ولسكن
خبرى أني وجدت المخلصه الوفية... خبرنى
أخبر الصحيح. بل لي أفعلت؟»

صاح الرجل من أعماق قلبه «حتى
أنت» حتى أنت يسرب الشك إلى
فمك. ألم عطف وجهه بكلمة يديه وانخرط
في مسكاه طويلا. ولكن اجنود لم يهابوا
الأسر المستمع والفد طويلا فأمروا الزوجة
والأطفال بالانصراف فخرجوا وأرجل
أخرى يودعهم بوزع الأخير.

واستطاع إيفان بعد حين أن يمس
نفسه وأن يسيطر على أعصابه. فتذكر
حديث زوجته وراح يسأحي نفسه «إنه
ليصور لي أن الله وحده هو الذى يطلع على
خائنة الأنفس. فإني وحده يجب أن أرفع
الأثام باللهاء ومنه وحده يجب أن ألتبس
الزوجة» وهكذا فقد إيفان كل أمل في
الإيمان وأخذ يصلى لله وحده.

سيمونييتش هل تعرف أسرة أكسيوف
التاجر . ألا يرالون أحياء ؟

وقال الرجل متعجبا « أعرفهم أو كيف
لا ؟ إني أعرف الكثير عنهم . . . »

أغنياء ولكن عائلهم هنا في سيبيريا قد أودع
السجن . أما أنت يا جدي فكيف جئت إلى هنا ؟

وميشا إيفان أن يتحدث عن نفسه :
ولكنه أرسل من بين التهنيدات العميقة

كلمات متقطعة « إن ذنبي قد دفن إلى
السجن لأعيش فيه ستا وعشرين سنة »

فقال سيمونييتش « أي ذنب اقترفت ؟ »
فأجاب إيفان في أنسي « لا بأس فإني

— ولا رب — أستحق كل ما قالته »
ثم سكت . ولكن رفاقه أخذوا ينصتون

على أوافد الجديد قصة إيفان كلها وهو
يسمع في دهشة وينظر إلى إيفان في عجب

ثم قال « عجيب ، عجيب جدا ! ولكن
كيف أصبحت شيخا هكذا ؟ »

وعجب الزفاق من كلمات سيمونييتش
وخلدوا حوله ينظرونه بوابل من الأسئلة

يريدون أن يستعلموا جلية الخبر ولكم لم
يجب إلا بقوله « إنه عجيب — يا رفاق —

أن تلاق هنا »
ورثت الكلمات في أذني إيفان ورجى

إليه بأن هذا الرجل يعرف سر مقتل التاجر
فقال له « لعلك سمعت يا سيمونييتش عن

إني السجن ، ونجمع السجناء زمرا والتف
القدامى منهم حول الحديثين يسألونهم

وينصتون الأخبار ، على واحدا بسمع شيئا
عن أهله وأسرته

وجلس إيفان في ذلة وانكسار يتسمع
إلى حديث رجل طوال منكثل العضل

قوى البنية قد شارف على الستين من عمره
وقد استرسلت لحبته على صدره . . . جلس

إيفان يسمع إلى قصة الرجل وهو يحكيها
يقول : « يا رفاق ! إني لم أفعل شيئا

سوى أنني وجدت حصانا شديدا إلى عربة
فنككت رباطه وركبته لأبلغ المنزل في

سرعة فقبض على واتهمت بالسرقة . ولما
سئلت قلت : لقد أردت أن أبلغ المنزل في

سرعة ثم أطلق الحصان فيعود إلى حيث
كان . هذا إلى أن صاحب الحصان صديق

حميم . ولكنهم لم يسموا الحديثي فجئت إلى
هنا في غير ذنب ، وفي الحق لقد ارتكبت

في شبابي جرما كان جزاؤه أن أساق إلى
هذا السجن ، ولكنني أظن من العدالة . .

فقال له واحد « ومن أين جئت ؟ »
قال الرجل « جئت من فالدينير فانا

من هناك وهي بلدتي . إن اسمي ما كرا وهم
يسمونني سيمونييتش »

ورفع إيفان رأسه لدى سماع هذه الجملة
وهو يقول « من فالدينير ؟ خبرني إذن يا

«مقتل التاجر»

«قال له» نعم فإن الشائعات قد جابت
الآفاق، ولكن عدا شئ انطوى منذ زمان
وطمست الأيام آثاره فسيته الذاكرة»
«قال له إيفان» ولكن املك سمعت
عن القاتل»

ضحك سيمبوينتش وهو يجيب «لا
شك أنه الرجل الذي وجدت السكين بين
مناعه، وإذا كانت السكين قد دست بين
مناحك فالذي فعل ربي حتى يدان. ولكن
كيف يستطيع حل أن يدس سكيناً في
حقيبتك وهي تحت رأسك ثم لا تستيقظ»
وسمع إيفان كلمات الرجل فأيقن أن
هذا الرجل هو القاتل الحقيقي. وصدمته
الحقيقة فأنطوى على نفسه طول الليل
بحر همومه وبين عبيته أخيلة لا حصر
لها تضطرب فلا تستقر: لقد رأى زوجته
في الشباب والجمال والرحم كيوم ودعها
ابنطلق إلى العرض، وسمع كلماتها
وصحكاتهن زن في أذنيه. ورأى طفليه
الصغيرين: الكبير في معطفه الأبيض،
والآخر على صدر أمه تحنو عليه. ثم ترامت له
نفسه شاباً في عنقوان الشباب والقوة والنشاط،
يمرح متى شاء ويضطرب إذا أراد. ثم صارت
الحوادث أمام ناظره فإذا هو في شرفة
الفندق يعزف على قيثارته، ثم إذا هو بين

يدي المواليس، ثم أمام المحكمة ثم ... إلى
أن انطوت ست وعشرون سنة وهو حبيب
هذا السجن البغيض. أفكان كل ذلك في
سبيل هذا الحزم الأثيم سيمبوينتش؟ وثارت
ثائرة إيفان مدفوعه إلى أن ينطلق إلى هذا
الوقت. يتنم منه شر انتقام، ولكنه كثر
ورثه في نفسه وراح يردد أذعيته طول الليل.
غير أن الأذعية لم تسكن في هذه المرة
قادرة على أن تملح شفاف قلبه فتعمت
فيه الهدم، الراحة، وفي أثناء النهار كان
إيفان مرض عن غمرته فلا يراه ولا يجلس
إليه ولا يتحدث.

ومضى سبوع وإيفان لا ينام الليل
ولا يمر قراره بالنهار

وفي ذات ليلة ذهب إيفان ليحول في
أحباء السجن قرأى فوهة خندق قد حفر
تحت أحد الرفوف التي ينام عليها السجناء
فوقف. هة يستطلع الخبر، فإذا سيمبوينتش
يقف من داخل الخندق وينظر إلى إيفان
في رعب. وحاول إيفان أن يسير في سبيله
ولكن الرجل أمسك به بحذائه في فرع
حديث الحفرة وحديث الأمل في الهرب
من السجن وهو يقول: «لا بد أن تحفظ
السرى نفسك تستمكن أنت أيضاً من
الهرب» فإذا أفضت السرى فإياهم سيجلده حتى
يحتج أموت ولكن سأقتلك أنت أولاً»

فقال إيفان ومودة الغيظ تسرى في عروقه « أم أنا ولا أبتنى الحرب ، وأما أنت فاستدعي حاجة إلى قتي لأنت قتلتي مائة من الناس ، وسواء أحفظت السر أم أوشيته فإن إرادة الله نافذة حتماً »

وفي اليوم الثاني عشر الجند على موضع الخندق ، وجاء الحاكم — حاكم السجن في ثورة يستجوب السجناء ليرى أيهم ارتكب هذا الجرم . ولكن واحدا ممن يعرفون صفة الأمر لم يستطع أن يخون سيميونيتش فكشف عن السر . وفي النهاية توجه الحاكم إلى إيفان وهو يقول « أنت رجل صادق فخيرني الحق » واختلطت مشاعر الرجل فهزت أعصابه وتناهت عواطف محبته ومجادبته آراء متناقضة تركته لافعالات شتى فغظرت عرقته نظرة خاطفة ثم حدث في الحاكم وهو يقول : « إنني لا أستطيع أن أحدث . إن إرادة الله تمنعني من الكلام ، فافعل بي ما تشاء ، فأنا بين يديك »

وحاول الحاكم أن يستل من إيفان اعترافا ولكن جيوده ذهبت كلها هباء ، فلم يخلق بكلمة غير ما قال

وسمى الرجل بأنه أسدى دما إلى واحد من الناس فسناقني — أول الليل — على سريره وأخذت سنة من السوء تداعب

جفنيه ، وقبل أن يستغرق في نوم عميق شعر بأن رجلا قد جلس على حين سعة على سريره . فاستيقظ ينظر فإذا سيميونيتش يجلس بهوارده ، فقال له « والآن ماذا تريد ؟ ماذا جئت بك ؟ » وسكت سيميونيتش فلم يفسح بحرف وهب إيفان من رواده بجوده « لا » ماذا تريد ؟ اذهب عني ! سأأخذني الحارس إن لم تعجب حالاً !

ولكن سيميونيتش قبل يهدس في أذني إيفان في طراعة « اعف عني ، اعف عني يا إيفان ، فإني أنا الرجل الذي قتل البجير وحياً السكين بين متاعك . لقد كنت على عزم أن أقتلك أنت أيضاً ولكني سمعت صوتاً خرج الخجرة فخبأت السكين بين متاعك ووقرت من الشباك أطلت الحرب » وتخير إيفان فما بدرى ما يقوى . ولكن سيميونيتش هبط من فوق السرير وزكع في الأرض وهو يقول « اعف عني ، اعف عني يا إيفان ! فسأعترف بكل ما كان وسيخلى سبيلك فتذهب إلى أهلك »

فقال له إيفان « إن من الخبث عليك أن تتحدث ، ولكنني قد قسيت من أجلك ستاً وعشرين سنة . فإني إن أستطيع أن أذهب : لقد مات زوجتي وسبب أولادتي فإني أين أذهب الآن ؟ »

ولكن سيميونيتش لم يرفع رأسه وراح